محمود درويش

لا تعود الى الماضي حين تذهب في العودة

انها تنهض ، أو تواصل النهوض .

واذا كانت غائبة عن المشاهدة ، فذلك لا يعني انها كانت نائمة . انه يعني ان الحـــواس التي تعاملت معها كانت ناقصة . والحلم لا يهرب بقـدر ما يطالب بجرح . من هنا تبدأ العلاقة ، ولكن لا تؤرخوا بدايتها ولا تتكهنوا بنهايتها ، فمثل هـــذه الدائرة لا تكفي . حلم يلد حلما فيتناسل . وفي عمليات الولادة يسقط دم على الحجارة فتصير الى عصافير . وفي عمليات الولادة تصدر صرخة فتصير العصافير الى حجارة . شيء من التبدل يحـول الاشياء لتحيا ، ويبقينا خارج العادة الموروثة . تسكننا الدهشة الدائمة والتوتر ازاءها . وهكـــذا تنهض في التحفز الى الحياة التي لا تأتي الينا بقدر ما نذهب اليها . عند هذا اللقاء نجد فلسطين .

هي الصليب ؟ كانت . فليس بوسع حيـــويتها أن تتحمل هذا الحاجز في الشعر والواقع . يومها كـانت ترضى بالصورة لانها كانت تحتاج الى حنان او عطف . فللدموع التي تأخذ صيغة الدم سحر سابق . والا فكيف كان من الممكن تسميتها ضحية . وهذه هي التقاليد : عمر ينفق على البحث عن تسمية حتى لو كانت سلبية ، لان بلوغ هذه السلبية سن النضج هو الحـــالة الطويلة ، ممرات الدم ، دهاليز العـــذاب التي يتكون فيها جنين الايجابية أو شرعية الفعل . حزين هو التاريخ . ولكن فلسطين هي الحزن .

سمّت نفسها بصعوبة ، واستندت الى نقيضها ــ البندقية . من علمها التشهير برموزها ؟! الا تلاحظون ، مرة اخرى ، اننا لم نفهم .. لان الحواس التي نتعامل بها مع هذا الجسد الزمني والروحي معـــا لا تزال ناقصة ؟ وهذا هو السر : ليست هذه الاشكال بنادق . انها سفـر الصليب في الزمن الاسود . انها اغصان الزيتون كمـا تبدو في الليل الهابط . انها الصدى الـــذي اعترضته قافلة كبيرة من قطّاع الطرق ، فاحتـــال عليها بنبرات تفهمها فتمضي خائفة . ويأتي صوت البراءة الاول في تناغمه مع الشجر والاطفال والصباح القادم . هذه هي فلسطين الليلة . تحارب الحرب بالحرب لانهـا السلام .

وهكذا مشت خطـــوة ضد الجاهز فـي الشعر والواقع . خطوتها زمن ، وعـــذابها مكان يرتدي زي الاحلام . كيف تعود الى العودة ــ الماضي ، وهي تتقدم في الزمن ــ الانجاز ؟ هكذا يسأل أصحـــاب الحواس الجاهزة لادانة فلسطين . اذا كان الجرح ادانة فقد أدانت فلسطين نفسها قبل أن يدينها الآخرون . ولكن فلسطين لا تعود الى الماضي حين تذهب الى العـــودة . فهذا الماضي صورة تجريبية للغد . الحنين هوية الشيوخ في بحثهم عن كنز فقدوه . ولكن فلسطين الجديدة ، بأطفالها الذين لا يعرفون تفاصيل المشهد ولا يجلسون في الحنين ، هي صناعـــة الانجاز ، وهي حرية الاختيار لا صدفـــة الوراثة . ان عودة هذا الفلسطيني الجديد هي عملية نمو وتصاعد من قاعدة هي الماضي الذي لا يعني عمرا سابقا ، ولكنه يعني المكان الذي سنمارس فيه ابداع المستقبل .

ليست العودة ردا على الرحيـــل . والا فستكون مقايضة أيام أو جهات . وهذا الفارق تصنعه الثـورة . بالثورة تغيّر لفظة العودة معناها الوراثي وتشحن نفسها بالامام . تصير : ذهابـــا الى فلسطين المستقبل . لان الانسان الذي تخلقه الثورة هو انسان منجز لا وارث . لا يقيس مسافته بالمعنى الاقطاعي للتراب . وانما يقيس جدارته بما يستطيع ابداعه على هذا التراب . يكون حرا على تراب محرر . أن اشم عبير البرتقال ــ ليس هـذا وطنـــا .

وهكذا مشت فلسطين خطوة اخرى ضد الجـاهز في الشعر وتقليـــد الماضي . ومن جراحها هي أعدت المغفرة للقادمين الى الصواب والغد . وتفوقت على ذاتها حين الفت ماضي الغزاة بمستقبلها ، ولم تدخل الحلبة من حيث شاء الغزاة . هناك في بقعة الماضي كانت قوتهم الظاهرية وهزيمتهم التاريخية معا . قوة تدمر نفسها لانها ظلم ولانها قدم لا جدة ، لانها تبـــذير لقدرات وطاقات

تصبح أوهى من قشة ، في حساب الحلم والتاريخ ، حين تعادي المستقبل . أي نجاح أحرزه أعداء فلسطين ؟ هل كان غير انجاح في اثبات الخطأ ؟ لقد جاء هذا الضعف لان هذه القوة جاءت من نسخ الماضي وحده .

لقد تفوقت فلسطين على ذاتها وعلى اعدائها ، حين عرفت كيف تكون نقيض الرهان الذي يستدرجها اليه الاعداء . وهكذا اعدت المفقرة : فلسطين وطن الذين يستحقون ان يعيشوا فيها بجدارة المنافسة على حبها والانسجام مع رموزها .. السلام والعدل والحرية . ان حربها النبيلة تحت هذه الاقانيم تحرير لضحاياها من كل الاطراف والجنسيات . هل رأيتم ماذا تفعل فلسطين العرب ؟ انها تحرر اليهود مع العرب في ذهابها الى المستقبل وتعفيهم من حرفة الماضي .

جميلة من كل الجهات ، ولكنها من الامام أخصب . ليس الجمال فضيلتها الوحيدة ، على الرغم من انها مشروع جنة . ان الصراع الذي يدميها يزيدها اخضرارا . ولرائحة انسجارها نكهة انسانية ، ولصخورها فجيعة القلوب . ولهذا كانت فضيلتها الاكبر قدرة الضحية فيها على النهوض الدائم . حتى تحولت ملامح الطبيعة فيها الى تتمات بشرية . هل يتمكن الظلم من البقاء حين يتمكن من ابادة العدل فيها ؟ أما زالت الانسانية قادرة على الرفض أمام حملة الشر المدججة بكل عبقرية صناعة القهر ؟ هذه هي الاسئلة التي أجابت عنها فلسطين المقاتلة بهذا الحضور المدهش في العصر .

بعد حوالي ربع قرن من سكون الضحية الخادع تأخذ الصورة هذا البعد : فلسطين المقاتلة من الصفر ، تصارع النقيض المطمئن الى النصر . لقد خطفت فلسطين أعداءها الى واقعة الرؤى : كنتم تبنون على رمل . وكانت هذه الوقفة أمام الافق تعطي هذا المشهد : يرى الفلسطينيون نهاية مأساتهم ، ويرى الاسرائيليون بداية خيبتهم . وقد تمر حروب أخرى بين هذه البداية وتلك النهاية . ولكن الاسرائيليين صاروا عاجزين عن تحقيق النصر ، لان أي نصر آخر سيكون أسوأ من هزيمة الوقوف أمام واقعة الرؤى : وماذا بعد ؟.. وهي الهزيمة الحتمية التي يقودها اليهم كل نصر جديد .

لم يتورط أحد بالنصر ، كما يتورط فيه أعداء فلسطين . وحتى الآن ، يمكن القول ان هزيمة الفلسطينيين كانت أقوى لهم من انتصار الاسرائيليين بالنسبة لمستقبلهم . مفارقة ؟ كلا . انها حتمية الباب المسدود أمام الفزاة . كان الفزاة محتاجين الى أربع حروب كي يصل الجيل الاسرائيلي الجديد الى هذا السؤال المفاجىء: ما هو الوطن ؟ ولم يكن الجيل الفلسطيني الجديد بحاجة الى شيء خارق ليعرف ما هو الوطن . تلك هي المفارقة : الجيل الاسرائيلي الجديد المولود في فلسطين هو الذي يسأل عن علاقته بهذه الارض التي لم يشاهد غيرها . ولا يسأل السؤال ذاته هذا الجيل الفلسطيني الجديد الذي ولد خارج فلسطين ولم يشاهدها أبدا . لان علاقته بفلسطين لا تحتاج الى مناقشة واجتهاد .

لقد سقط رهان صهيوني آخر على ذاكرة المولودين بعد الكارثة . كان احتمال النسيان الفلسطيني املا اسرائيليا ، فحولته المقاومة الفلسطينية الى صدمة . ولقد برهن سؤال الولد الاسرائيلي عن علاقته بالارض على ان قدرة الغزو على التناسل لا تلد حقا . لان علاقته الوحيدة بهذه الارض هي علاقة اغتصاب وطدتها سهولة الحروب السابقة . وحين تعرضت الوسيلة شبه الوحيدة، وهي الحرب ، الى عمليات خدش صارت العلاقة كلها مهددة بالسقوط . ولكن علاقة الولد الفلسطيني بالارض هي علاقة حق وطدتها الثورة وحولتها الى مستقبل .

هكذا ، يولد الطفل الفلسطيني في المستقبل . ويمضي الغزو الصهيوني في اتجاه الماضي . وهكذا ، عادت فلسطين بكامل حضورها . لقد تهجت اسمها بصعوبة بعدما قطعوا لغتها . لقد سمت نفسها ، بالصبر والقتال ، وسافرت الى مستقبل القيم الانسانية على الارض التي لا تشبه الارض . كأنها تتمة جسد . كأنها افتتاحية صلاة .

وهذه هي قصيدتنا التي لا تنتهي ، لانها دائمة البداية .

بيروت

اعلان من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تصدر مجلة « اقلام » ومجلة « المثقف العربي » اللتان تصدران عن وزارة الاعلام في العراق عددين خاصين في الاسبوع الاول عدد كانون الثاني (يناير) القادم باشراف الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، فنرجو من الاعضاء المساهمة بارسال :

١) قصائد .
٢) قصص .
٣) مسرحيات .
٤) دراسات ادبية عن الشعر والقصة والمسرحية الفلسطينية .
٥) دراسات سياسية وروايتين .
٦) مقابلات مع شعراء وقصاصين ومفكرين .

يجب ان تسلم المواد قبل الخامس والعشرين من تشرين الثاني القادم .

امين السر : حنا مقبل